

تمهيد

هذه المحاضرات* ليست إلا إضافة يسيرة إلى جهود سابقة لأسانذة جيلنا ، ممن اشتغلوا بالدراسات اللغوية وتركوا لنا ثمار جهودهم السخية مناراً على الطريق .

وهؤلاء ، وآخرون معهم من المستشرقين ، انطلقوا بالبحث اللغوي من حيث انتهت خطوات الذين سبقوهم من علماء السلف^(١) .

والشوط الذى قطعه هؤلاء العلماء من قدامى ومحدثين ، قد عبّد الطريق لمن يأتي بعدهم ، بحيث لا يبدأ أحدنا خطوة على الدرب ، دون الإفادة من بحوثهم والتزود منها لما هو بسبيل إلى درسه .

وهذا الوضع ، يلقي عليكم عبء الاطلاع على ما قدموه ، قبل أن تمضوا معي في خطوتي على الطريق . ولا أراى أشق عليكم بمثل هذا فأنتم عندي أهل له . ولا أراكم تؤثرون أن أمهد لمحاضراتي بتلخيص هذه الكتب العربية ، فما يحل لأستاذ أن يحرم طلابه متعة البذل والمعاونة ، ويمحور على حقهم في أن يستقلوا بالعمل حين تتيسر لهم أدواته ووسائله ، فينفرد بالاتصال بمصادر ومراجع يلخصها لهم ، حين تكون قريبة منهم يصلون إليها ، ويطالعونها في أصولها غير مبتورة بتلخيص وإيجاز .

وفي مكتبة معهدكم بحوث مطبوعة لعدد من أسانذتنا الذين حاضروا أفواجاً من زملائكم ، في البحوث اللغوية . ويتصل منها بموضوعنا من قرب ، محاضرات « الأستاذ مصطفى الشهابي » في : المصطلحات العلمية في اللغة العربية — ١٩٥٥ .

* ألفت هذه المحاضرات على طلاب معهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة ، سنة ١٩٦٩ .

(١) جمع السيوطي قدراً هاماً من آثار لغويي السلف ، في كتابه (المزهري في علوم اللغة) .

وقد استخلص منه « جورجى زيدان » مادة كتابيه (الفللفة اللغوية ، واللغة كائن حي) مع إضافة من دراسات اللغويين الغربيين ، في القرن الماضي .

وفيه دراسة مستوعبة لموقف لغتنا من المصطلحات العلمية في القديم والحديث .
محاضرات الأستاذ « الدكتور إبراهيم أنيس » في : مستقبل اللغة العربية
المشتركة - ١٩٦٠ . وفيه معالجة حرة . لقضية من أعقد قضايانا اللغوية المعاصرة .
محاضرات « الأستاذ أمين الحلوى » في : مشكلات حياتنا اللغوية - ١٩٦٤ .
وقد عالج فيه قضية التطور اللغوي في المرحلة التي سبقت استقرار
العربية على النحو المعروف لنا من القرون الثلاثة الأولى للهجرة . وهي
مرحلة شاقة يوغل قديمها في عصور غابرة ، وتتوارد عليها مرويّات وأقوال
متناقضة متدافعة . تختلف في أصل اللغة هل كان توقيفياً أو بوضع ؟ ثم
تختلف في تقديرها : هل بلغت غاية الكمال منذ عُرِفَت في القديم ، أو أن
شأنها كان شأن الظواهر الاجتماعية الأخرى في خضوعها لقوانين الحياة
وسنن التطور ؟ ثم تختلف بعد ذلك في حرمتها التي أضفاها عليها نزول القرآن
الكريم بها ، هل يجب الوقوف بها حيث عرفها عصر المبعث . أو تسير
الزمن مستجيبة لمقتضيات الحياة ؟

وغير بعيد منكم . في دور الكتب العربية ، بحوث أخرى قيمة ،
تتصل بموضوعنا ، أذكر منها :

« مقدمة لدرس لغة العرب » للشيخ عبد الله العلايلي .

« إحياء النحو » للأستاذ إبراهيم مصطفى

« نحو التيسير » للدكتور أحمد عبد الستار الجوارى .

« التطور النحوي للغة العربية » للمستشرق برجستراسر .

ولسنا على أى حال نعرض للبحث من الناحية الموضوعية اللغوية التي
وطأها لنا هؤلاء الدارسون . وإنما الذي يعنينا هو النظر في لغتنا من حيث
صحتها الحتمية بالحياة ، والتعرض للقضايا اللغوية التي تواجهنا في وجودنا المعاصر .
وما قد نعرض له في هذه المحاضرات ، مما يتصل بماضي حياتنا اللغوية .
ليس إلا نظرة تاريخية تتابع سير الحياة بهذه اللغة .

والحق أن الدراسة اللغوية في أي مجال ، لا تفقد صفة المعاصرة مهما
 يوغل الدارس في الماضي البعيد . فلست إذن في حاجة إلى أن أتمس مسوِّغاً
 لوضع « لغتنا والحياة » بين ما نشغل به من القضايا الحيوية لعصرنا ، إذ يظل
 موضوع اللغة جديداً ما بقيت هذه العربية أداة نطقنا وتفكيرنا ،
 ولسان قوميتنا ، ووسيلة الثقافة والتعبير عن إنسانيتنا ، واللغة التي تصلنا
 بآراث أسلافنا وتاريخ أمتنا ، وبها نتفاهم ونلتقي عبر حدود الزمان والمكان .

مدخل تاريخي

عرف التاريخ شعوب هذا الوطن ،
ترفض الاندماج في كل الغزاة الذين تعاقبوا
عليها ، قبل الإسلام ، على مدى ألف عام ،
من فرس وروم ويونان ووندال .
ثم رآها تستجيب للإسلام عن طوعية ،
فما لبثت أن تعربت واندججت بعناصر
شخصياتها القديمة وقومياتها المتعددة ، في
شخصية جامعة وقومية مشتركة .

اللغة العربية هي اللسان القوي لشعوب الوطن العربي من وادي الرافدين في قلب الشرق الآسيوي ، إلى وادي النيل وأقطار المغرب الممتدة على طول الشمال الإفريقي إلى ساحل المحيط الأطلسي .

ومهما تختلف اللهجات المحلية لهذه الأقطار ، فإنها لا تعرف غير العربية لسان قومية ، وسيلة تفاهم مشترك ، وأداة اتصال فكري عبر الحدود والمسافات

ومهما يعرف التاريخ من أواصر قربي ونسب وجوار . كانت بين أقطار هذا الوطن من قديم الزمان ، فالذي لاشك فيه هو أنها بدأت بالإسلام تاريخها المثير وقوميتها الجامعة ولسانها الموحد .

وهذا يعني أننا في مدخلنا التاريخي إلى الموضوع : نبدأ من حيث بدأت شعوب أمتنا تتعرب . بعد أن تلقت الإسلام ديناً واعتنقته عقيدة .

غير أنا مع ذلك ، نحتاج إلى لمحة سريعة من عصر ما قبل الإسلام : تضيء لنا حركة التحول الحامس الذي تم في القرن الأول للهجرة .

• • •

قبل الإسلام ، خضعت أقطار هذا الوطن نحو ألف عام للحكم الأجنبي ، باستثناء جزيرة العرب التي اعتصمت ببواديها الجرد ، لا مطعم فيها لغريب .

وتعاقب على شعوبنا الرومان والفرس واليونان ، في أدوار تاريخية واحدة أو متقاربة . ففرضوا عليها لغاتهم وعقائدهم وقومياتهم وأعرافهم ، ثم مضوا جميعاً . لم يتركوا هنا قومية فارسية أو رومانية أو يونانية . وكل ما خلفوه على المدى الطويل من أثر مادي أو معنوي ، ذاب في عناصر الشخصية الأصلية لإنسان المنطقة ، ولم تذب تلك الشخصية قط في أجنبي أو دخيل .

ثم جاء الإسلام ، فكان التحول الذي لا يعرف التاريخ له مثيلاً :

إلى المشرق ، خرج العرب المسلمون من جزيرتهم فاتحين ، فما مضى

ربع قرن على بدء التاريخ الهجرى ، حتى كانت الشام ومصر والعراق قد انتهى تاريخها الرومانى واليونانى والفارسى ، وبدأ تاريخها الإسلامى العربى فكان لقائه بقديمها الأصيل الذى صمد نحو ألف عام (٣٣١ ق.م : ٦٤٠م) للغزو الأجنبى ، وأرق الغزاة بثورات يعرفها تاريخنا القديم . ويعطى رصيدها الضخم من الضحايا والثارات والأحقاد .

وعلى ذلك الزمن الطويل . بقيت لغات الغزاة وثقافتهم وعقائدهم المفروضة بالإكراه . لغة دواوين وثقافة دخيل وعقائد مستعمر ، يرتن بقاؤها بما يحميها من سلطة الحكام وجبروتهم ، وتواجهها الشعوب بالتحدى الذى يتمثل فى الإصرار على التعامل بلسانها القوى خارج الحدود الرسمية ، وبالرفض الذى يتمثل فى تمسكها بعقائدها وتقاليدها وأعرافها ، ما استطاعت إلى ذلك سبيلا . .

ومن عجب أنها ما كادت تستجيب للإسلام ، حتى نبذت كل ماضيها الأجنبى المفروض ، وحملت لواء دينها الحديد داعية إليه مناضلة عنه . مشاركة فى حركة المد الكبير للفتوح الإسلامية التى بلغت أقصى المغرب .

ومن المشرق ، خرجت كتائب الفاتحين تحمل لواء الإسلام إلى أقطار المغرب . وفى هذه الكتائب عرب خلّص من عدنان وقحطان . ومستعربة* من العراق والشام ومصر وبرقة ، اتجهوا غربا إلى إفريقيا والمغرب الأقصى ، وفيها شعب قوى الشكيمة . دوخ الغزاة وغلب عتاة الأباطرة ودهاء القادة . تابعت عليه الجيوش الغازية فما استطاعت أن تتجاوز المنطقة الساحلية ، وكأنها كانت تجد فى قربها من البحر المتوسط شعوراً بتأمين هروبها من مصير مقرر محتوم . واعتصمت قبائل الأمازيج فى معاقلها بالجبال والريف والبادى ، لا تدين لمستعمر ولا تخضع لسلطة أجنبية .

احتل الرومان الشمال الإفريقى بعد سقوط قرطاجنة التى دوخت الإغريق جولات مريّة ما بين عامى (٢٦٤ : ١٤٦ ق.م .) بقيادة هانيبال

وماسينيسا وأسد روبال . وقد دمر الرومان قرطاجنة التي كانت منار حضارة زاهرة امتدت إلى أسبانيا وساحل الأطلسي . وبقى الرومان في مستعمراتهم على حافة البحر المتوسط نحو ستة قرون (١٤٦ ق م : ٤٣٩ م) فكان احتلالاً عسكرياً واقتصادياً لم يتغلغل في الروح والفكر ولم ينفذ إلى العقيدة والضمير والوجدان . وشهد العصر الروماني ثورات وطنية عاتية ، بقيادة باخوس الأول في المغرب ، ويوغورطا النوميدي الجزائري حفيد ماسينيسا ، ثم يوغود وباخوس الثاني الذي حرر الجزائر في عهد « أكتاف » ثم كاليجولا ، وسابال ، وفرموس الذي سحق جيوش الرومان سنة ٣٦٩ م وأعاد الحكم إلى قومه البربر . حتى جاء الوندال من سواحل البلطيق وبلاد الغال فورتوا الاستعمار الروماني واحتلوا الشمال الإفريقي نحو قرن ، انهزموا بعده أمام ثوار البربر في طرابلس بقيادة « أنطالاس » فهدت هزيمتهم للغزو البيزنطي الساحق عام ٥٣٣ م ، في عهد « الامبراطور جستنيان » وواجه البيزنطيون بدورهم مقاومة عنيفة من بربر المغرب ، خضبت الساحة الشمالية بالدماء . ثم مضى البيزنطيون كما مضى كل الغزاة من قبلهم ، لم يتركوا سوى أطلال تزار ، وبقايا آثار تحدث عن ماضٍ انطوى واندثر .

ويكاد المؤرخون يجمعون على أن ما تركه الاحتلال الروماني الذي احتل البلاد نحو ستة قرون ، لم يصمد للفتح الإسلامي . وأن اللاتينية التي بدا أنها سادت الشمال الإفريقي زماناً ، صُفِّيت في القرن الهجري الأول^(١) .

ويقرر الواقع التاريخي ، أن العرب في المرحلة الأولى للفتح ، لم يجابهوا خطراً ذا بال من ناحية البيزنطيين ، وإنما كانت المواجهة مع زعماء الأمازيغ عشاق الحرية المعتزين بشخصيتهم وقوميتهم . وقد شهدت المرحلة الأولى مقاومة عنيفة للعرب من هؤلاء الزعماء ، في مثل ثورة « كسيلة البربري » وثورة « الكاهنة »^(٢) فلم يكن خضوع البربر سهلاً ولا كانت بلادهم غنيمة تلقاها

(١) إبراهيم حرركات : المغرب عبر التاريخ ص ٧٥ ط السلمى بالدار البيضاء .

(٢) " " : " " ص ٨٨ وما بعدها .

العرب من أهلها في استسلام^(١). ومع ذلك ، لم يلبث التاريخ أن شهد قبائل الأمازيج التي عصبت على الغزاة من كل جنس وملة . تسير بعد أقل من نصف قرن من الفتح الإسلامي ، تحت لواء دينها الجديد . فتنتقل عبر مضيق جبل طارق إلى أسبانيا فاتحة منتصرة . والجيش الذي عبر المضيق كان بقيادة « طارق بن زياد » المغربي ، في أكثر من عشرة آلاف من قومه البربر ، وألفين من العرب . تمكن بهم « طارق » من فتح قرطبة ومالقة وغرناطة ومرسية ، ثم كانت الموقعة الحاسمة في وادي الرطراط بين جيش طارق وجيش لذريق سنة ٩٢ هجرية ، أي بعد نحو نصف قرن من دخول « عقبة بن نافع » إفريقية ، واختطاطه مدينة القيروان أول مدينة إسلامية هناك !

نصف قرن فحسب ، كان كافياً لأن يحول مجرى التاريخ ، ويجعل من الأمازيج الأحرار الأباة البواسل ، جنوداً مجاهدين في سبيل الإسلام .

وما يزال التاريخ في حيرة من أمر هذا التحول الفذ الحاسم . وأكثر المؤرخين العرب ، يردونه إلى وحدة الأصل العربي لكل شعوب المنطقة من المشرق والمغرب^(٢) دون أن يفسروا لماذا لم تلتق هذه الشعوب الموحدة الأصل ، في جبهة واحدة ضد الغزاة الذين احتلوا البلاد قروناً ، قبل الإسلام ؟

أما الغربيون ، فلم ينكروا قط ، ما كان بين الشعوب القديمة للمنطقة من صلات جوار وأواصر قرى ، لكن أكثرهم يفصلون الجنس السامي عن الجنس الحامي والآري لشعوب المنطقة .

وينقل الدكتور مراد كامل : « أن العلماء اتفقوا على أن موطن الشعب السامي في العصور التاريخية كان شبه الجزيرة العربية . ومنها خرجت الهجرات السامية : الأولى نحو العراق من ابتداء الألف الرابع ق.م وهي

(١) اللواء الركن محمود شيت خطاب : قادة فتح المغرب .

(٢) محمد عزة دروزة : تاريخ الجنس العربي - ط بيروت .

الأكدية . والثانية حوالى سنة ألفين قبل الميلاد وهى الكنعانية . والثالثة حوالى سنة ألف وخمسةة قبل الميلاد وهى الآرامية . ثم الهجرة الرابعة وهى العربية . وتمثل أقوى الهجرات السامية . ونحن نعرف تفاصيلها التاريخية والأسباب التى دعت إليها « (١) » .

وغريب منه هذا القول باتفاق العلماء على هذا ، بعد أن صدر الفقرة التى نقلناها عنه آنفاً بما ينقض هذا الاتفاق وينفيه . قال ما نصه :

« ذهب العلماء مذاهب شتى فى المهد الأصلى للساميين فى عصور ما قبل التاريخ . وقد حاول أصحاب كل نظرية أن يأتوا بأدلة تثبت رأيهم : منها جغرافية ومنها لغوية ومنها ما يختص بالجنس ومنها ما فسروا به التوراة . فمن قائل إن مهد الساميين الأصلى بلاد أرمينية ، ومن قائل إنه شمال إفريقيا . ومن قائل إنه شبه الجزيرة العربية . ومن قائل إنه ما بين النهرين ، ومن قائل إنه بلاد العموريين فى سوريا « (٢) » .

وأحسب أنه فيما ذكر بعد ذلك ، من اتفاق العلماء على أن الجزيرة العربية كانت الموطن القديم للساميين ، متأثر بما نشره هنا ، المؤرخ اليهودى « أبو ذؤيب : إسرائيل ولقسنون » الذى كان مدرساً للغات السامية فى الجامعة المصرية (١٩٢٧ : ١٩٢٩) ، ولقد اختلطت اليهودية بالعربية فى أكثر محاضراته . لطول ما قال بوحدة أصلهما السامى . فما تدرى حين تقرأ كتابه « تاريخ اللغات السامية » (٣) أين الحد الفاصل فى تصوره بين السامية واليهودية ، أو بين العربية والعبرية ! وقد قرر « أن الجزيرة العربية كانت وطناً مشتركاً لجميع الأمم العبرية والكنعانية... » .

وأن « الهجرة الإسرائيلية التى فتحت بلاد فلسطين بعد أن صدرت

(١) من تعليقه هامش صفحة ٢٩ ، من كتاب جرجى زيدان (اللغة العربية كائن حى) .

(٢) المرجع السابق : هامش ص ٢٨ . ط دار الهلال .

(٣) نشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر ، مطبوعاً فى مطبعة الاعتماد بالقاهرة ، سنة ١٩٢٩ .

من الجزيرة العربية ، كانت سبباً لتقلبات اجتماعية ودينية كثيرة ، كبيرة الأثر في التاريخ العام

وأن انتشار الكنعانيين في بابل ، بعد أن انتشروا في سورية وفلسطين ، كان له تأثير عظيم في حضارة بابل « فقد أدخلوا على البلاد بعض عقائدهم كما كان للغتهم نفوذ كبير في لغة تلك البلاد . . ولشريعة حمورابي الكنعاني قيمة تاريخية عظيمة فوق قيمتها الحقيقية ، لأنها تمثل لنا عقلية بابل وشومر من ناحية ، وتدل على الروح التي كانت للكنعانيين من ناحية أخرى ، وهي أقدم شريعة في تاريخ التمدن البشرى » ^(١).

وترتبط كلمة عبري بكلمة عربي « ارتباطاً متيناً لأنهما مشتقتان من أصل واحد وتدلان على معنى واحد » ^(٢).

« ولأن بني إسرائيل جاءوا بلغتهم العبرية من الجزيرة العربية ، كانت مميزات الحياة الصحراوية بارزة جداً في هذه اللغة ، وقد توارث الإسرائيليون هذه المميزات إلى أن استوطنوا فلسطين ، فلم يكونوا يستنكرون على الأدب أن يستعمل التشبيهات الصحراوية والخيال البلوى » ^(٣).

والحق أن « إسرائيل ولشئون » لم يتدع هذه الأقوال ، فقد سبقه عدد من متعصبى المستشرقين ، إلى مثل ما قاله أو قريب منه . فالمستشرق مرجوليوث . يذهب إلى « أن الوطن الأصلي لبني إسرائيل كان ببلاد اليمن » ويلتقط بعض ألفاظ مشتركة في العبرية والسبئية ، وبعض عادات وأخلاق دينية . قال إنها متشابهة عند أهل سبأ وبني إسرائيل ^(٤).

(١) يصرح ولشئون بأنه ، في رده إلى الكنعانيين أعرق حضارة للشرق الآسيوي ، يفترض أن اسم حموربي مشتق من لفظ عموري ، وهو تركيب مزجي معناه كمنى اللفظ العبري « الله ربى » وقد وجد اسم الملك عمري الإسرائيلي في الخطوط المسمارية يكتب : حمري ! ص ٢٦ من كتاب تاريخ اللغات السامية .

(٢ : ٣) المرجع نفسه ، ص ٧٨ ، ٧٩ .

Margoliouth : Dir Israeliten zu Mekka, p. 10.

(٤)

ولم « دوزى » مثل هذه الملامح المتشابهة بين اليهود وقريش ! .
فادعى « أن مكة وعمرانها الوثني وتقدم قبائلها في الجاهلية على غيرهم من
قبائل العرب ، إنما جاء إليها من بطون شمعونية إسرائيلية ^(١) » .
وأبو ذؤيب يناقش مثل هذه الأقوال ، في لهجة المؤرخ المحقق ، ثم
لا يلبث أن يعضى إلى أبعد منها وأغرب ، على ما نقلنا آنفاً من كتابه
« تاريخ اللغات السامية » .

* * *

وحين نلتمس المسارب الأولى لفكرة السامية ، لغة وجنساً ، نجد
خرجت أول ما خرجت من علماء يهود الأندلس في العصور الوسطى ،
كانوا أول من ظهر بهذه العلاقة بين الأمم السامية . ثم جاء « شلونسر »
فكان أول مؤرخ غربي استعمل اصطلاح السامية في بحوثه وتحقيقاته التي
نشرها في النصف الثاني من القرن الثامن عشر . وقد استخلص هذه التسمية
مما جاء في التوراة (الإصحاح العاشر من سفر التكوين) عن أولاد
بنى نوح : سام وحام ويافت ، ومن ولد لكل منهم بعد الطوفان .

ومن ذلك الحين راجت فكرة تقسيم أصول الجنس البشرى إلى سامية
وحامية وآرية . في دراسات المستشرقين من اللغويين وعلماء الأجناس .

وهي دراسات جادة أعطت الفكرة صبغة محترمة وأقامت عليها عدة
بحوث علمية ، لها تقديرها وقيمتها . ونقلها النافلون منا من حيث انتهت إليه
في البيئة العلمية ، دون نظر إلى وهن الأساس الذي قامت عليه . حتى صارت
من البدييات التي لا تختمل مناقشة أو جدلا . وقد حملوها على محمل
الحقائق التاريخية والنظريات العلمية ، فكان أن ألقت على جنسنا العربي كل
أوزار اليهود وجرائعهم التي ضجت البشرية منها على امتداد الزمان والمكان .
هل يبدو هذا الوقوف عند السامية . بعيداً عن موضوعنا ؟ الواقع
أننى أردت أن ألفتكم إلى ما ينبغي من حذر في تلقى ما راج من نظريات

ودعاوى تلقاها الدارسون منا مسلمين ، ثم لم يلبثوا أن تعصبوا لها وتصدوا لترويجها وتأييدها وترسيخها .

وفكرة السامية لو أنها وقفت عند الدراسة العلمية لشعوب المنطقة ، في التاريخ المعروف جنساً ولغة ، لما كان منها بأس علينا . أما أن توغل الفكرة في غيابات ما قبل التاريخ وتوجهه لخدمة غرض بعينه . فذلك ما يرفضه العلم . وإذا كان يجذبنا إلى السامية أنها ترد شعوبنا إلى أصل واحد ، فينبى ألا يفوتنا أنها كذلك قد جنت على تاريخنا بمثل هذه الدعاوى المرسلة ، وألقت على أصولنا ظلاً يهودياً تنكره دماؤنا التي لوسيطت بدم يهودى : تزايلن حتى ما يمس دما !

ولست أدرى في الواقع ، فيم تعلقنا بهذه الفروض التي أقحمت على مناخنا الفكرى الحديث ، عن رغبة طيبة في إثبات وحدة شعوبنا من عصر ما قبل التاريخ : فالقول بوحدة أصول ثلاثة للبشر ، عند سام وحام ويافت ، لا يستحق كل هذا الجهد المبذول . إذ ليس بين أبناء نوح الثلاثة وبين أبيهم ، إلا جيل واحد تلتقى عنده كل هذه السلالات التي وزعوا البشرية عليها . فما هو إلا أن نرجع بسام وحام ويافت إلى أبيهم نوح ، حتى تجتمع كل هذه الأجناس في أب واحد ! .

على كل حال ، لا أقصد من هذه الإشارة إلى السامية ، أن تتجهوا إلى رفض الدراسات العلمية التي أقيمت عليها ، لأنكم إن فعلتم ، وقعتم فيما أحذركم منه : من التورط في التسليم بفكرة أو رأى دون نظر أو تأمل ؛ وكرامتكم العقلية . تفرض عليكم ألا تسلموا عقولكم إلى ما يبدون من البديهيات ، وألا تتابعوا تياراً فكرياً دون أن يكون لكم رأى فيه ، بعد تتبع مصدره ومجراه ، وطول التأمل في البراهين والأدلة التي سيقف لتأييده .

وسترون فيما نعالج من أزمتنا اللغوية ، أنها ما تعقدت إلا بما رسخ في فكرنا الحديث من دعاوى حُملت على محمل الحقائق العلمية ، وأقحمت على

على وجودنا اللغوى والقومى فسايرناها ، فإلث أن رسخت وأخذت صورة
البلدات أوالحقائق العلمية .

حسبنا أن نكتفى بالمعروف من تاريخنا : فنستفيع بالدراسات التى نظرت
فى لغات المنطقة العربية ، وتتبع ما بينها من صلوات ، وأن نندبر الواقع
التاريخى الذى وعى أن أقطار هذا الوطن العربى قد خضعت على مسار
الزمن لأحداث تاريخية متأللة ، وأرتبطت بوحدة وجود ومصير ، ورفضت
جميعاً أن تندمج فى الدول التى طرأت عليها واحتلتها نحو ألف عام قبل الإسلام ،
ثم مضت وكأنها لم تكن هناك .

والتاريخ قد يفسر هذه الظاهرة ، بأن شعوب المنطقة كان بينها تقارب
فى المزاج والعقلية . أثراً للروابط التى قامت على الحوار والتقربى والتبادل
التجارى والفكرى .

ومع كل هذه الروابط والصلوات ، ومع تماثل الأحداث التاريخية
لشعوب المنطقة ، كانت هناك قوميات خاصة ، مصرية وبنيقية وبربرية
وعربية وفارسية ، بينها حدود قائمة معروفة .

ثم لما جاء الإسلام وترك لها حرية العقيدة ، لم تلبث أن انصوت
تحت لوائه . وبدأت تتعرب من الجليل الأول بعد الفتح .

وامتزجت الدماء بالنسب والمصاهرة والقرى ، وانصهرت الأمزجة والعقليات
فى شخصية جامعة . واندمجت العناصر والأجناس فى قومية مشتركة .

• • •

والتاريخ لا يجد تفسيراً لهذا التحول الحاسم ، سوى أن هذه الشعوب
أمنت عن عقيدة وأسلمت عن طوعية ، بعد أن أرهقتها محاولات الإكراه
على التحلى عن موروث عقائدها وقومياتها وتقاليدها . وشهدت فترة ما قبل
الإسلام اضطهاداً مريراً من السلطات الحاكمة . لفرض عقائدها ولغاتها
وتقاليدها . كان رد الفعل الطبيعى له . أن واجهته الشعوب بالإصرار

على الرفض ، مدفوعة بالتحدى عن حدس الدفاع عن الذات . فلم يكن التحول انتقالاً من حكم الرومان والفرس واليونان إلى حكم العرب ، وإنما كان استجابة باهرة لعقيدة اقتنعوا بها . وقد وجدت الضائكر التي ظلت بمعزل عن تيارات الغزو ، ما تستريح إليه في دين الفطرة المصدق لما بين يديه من الرسالات الدينية . وكان المبدأ الإسلامى فى إقرار حرية العقيدة وحظر الإكراه فى الدين ، هو الذى أطلقهم من موقف التحدى والرفض ، إذ ترك لهم فرصة الاختيار وحق التفكير دون قسر أو إرغام . وهىأ لهم الفتح لدين يحترم حرية العبادة ويكفل للإنسان حقوق إنسانيته .

وثابت تاريخياً أن الصراع المذهبى الدينى بين روما ومصر قد وصل قبل الإسلام إلى حافة الحرب ، ثم إلى عزلة صارمة من رجال الدين المصريين الذين لاذوا بأديرتهم فى الصعيد وصحراء سيناء . رفضاً لسياسة روما فى فرض مذهبها الدينى على الشعب المصرى بالقسر والإكراه والاضطهاد . . .

وثابت تاريخياً كذلك ، أن الرومان الذين حملوا المسيحية إلى الشمال الإفريقى ، عجزوا عن القضاء على الوثنية ، فظلت الآلهة المعبودة موضع تقديس ، وبقى لكهنة « بعل دوخ » بوجه خاص ، نفوذ مسيطر دفع الحكام الرومان إلى مطاردتهم وصلبهم فى القرن الثانى للميلاد . وإلى القرنين الرابع والخامس ، كانت المسيحية ما تزال تلقى مقاومة عنيفة من الوثنية . بل إن الإسلام حين دخل المغرب . وجد الوثنية فى جبال الريف ونمارة . ولا شك فى أن الصراع المذهبى للطوائف المسيحية قد قوى نفوذ الكهنة ، الذين لبثوا يمارسون سلطانهم العتيد على التماثل إلى المرحلة الأولى من الفتح الإسلامى ، فكانوا هم الذين تصدوا لمقاومة الكنائس الوافدة من الشرق ، إلى أن استقر الإسلام فى المنطقة ، وتتابعت القرون فلم ترده إلا رسوخاً وثباتاً ...

• * •

والسودان وإن تأخر دخوله رسمياً فى الدولة الإسلامية إلى القرن العاشر

المجربى ، لم يلبث طويلا حتى غلب عليه المناخ الدينى ، وتوهجت نار القرآن فى البوادر والنجوم . وازدهر التصوف تأثراً بطبيعة البيئة ومزاج الإقليم ، فكان لمشايخ الطرق سلطان لا يدانيه سلطان الملوك والحكام . . .

ومنذ دخل الإسلام هذا القطر الشقيق ، أخذ لواء القيادة للأحداث ، فكان العامل الدينى هو الموجه الأكبر لتاريخه شعباً ودولة .

وفى كل هذا ، لم يكن اتصال الشخصية الإسلامية العربية بالماضى الأجنبى القريب المرفوض من هذه الشعوب ، وإنما كان الاتصال بماضيها الأصيل العريق عبر فجوة من الزمن مداها ألف عام ، رفضت فيه قوميات الغزاة وثقافتهم وعقائدهم ، إلا القدر القليل الذى فرضه طول المدى وأساغته شعوب المنطقة . فتمثلته بروحها ومزاجها . وأقرب مثل لذلك مدرسة الإسكندرية التى هاجر إليها الفكر اليونانى بعد انطفائه فى أثينا ، فلم تقبله كما هو ، ولم تأخذه نقلاً ، وإنما أعطته روح الشرق ومزاجه وصفاءه فصيرته هيلينسيا بعد أن كان هيلينياً^(١) .

• • •

ومن قصور الإدراك : أن تصور أن الشخصية الجديدة للأمة الإسلامية العربية ، هى نفس الشخصية العربية التى خرجت من الجزيرة العربية مع كتائب الفتح ، بكل ملامحها وسماها وألوانها وظلالها وميراثها . فليس من طبيعة الأشياء أن تتعرض شخصية العربى لكل التيارات الجديدة الطارئة دون أن تتفاعل بها .

كما ليس من المنطق أيضاً ، أن تتلقى الشعوب المتعربة جديداتها الوافد وقد انقطع كل ما يربطها بقديمها العريق الذى ناضلت عنه ضد كل الغزاة الذين تسلطوا عليها قرونا قبل الإسلام . فرفضت أن تندمج فيهم أو تسالمهم .

(١) نجيب بلدى : مدرسة الإسكندرية .

بطار : فتح العرب لمصر - ص ٥٥ وما بعدها ، الترجمة العربية لفريد أبو حديد ط ١٩٤٦ .

وإنما الصحيح هو أن شعوب المنطقة حملت معها تراثها الفكرى والحضارى ، واندمجت به فى جديدها الإسلامى العربى ، فنشأ عن الامتزاج والانصهار شخصية إسلامية الجواهر عربية اللسان ، وصبت كل الروافد فى المجرى المشترك لأمة موحدة ، مع ظواهر مميزة لكل قطر منها ، جاءت من طبيعة البيئة والسلالة ، والميراث المادى والمعنوى . .

« . . . »

من هنا لا ترى وجهاً لما كثر فيه الجدل على قوميتنا بين أصولها القديمة .
 فرعونية أو بربرية أو فينيقية أو آشورية وبابلية أو زنجية . سامية أو حامية
 أو آرية ، وبين قوميتها الجامعة الموحدة . منذ أربعة عشر قرناً .
 وهو جدل تورط فيه عدد من المؤرخين الغربيين ، فتعثر منطقهم .
 مثل « جوستاف لوبون » الذى قال فى كتابه حضارة العرب :

« وسوف ترى أن المصريين الذين تمددوا على حضارة الفرس والإغريق
 والرومان ولغاتهم ، انتحلوا لغة العرب ودينهم وتمدينهم (١٤) وأن مصر غدت
 بذلك أشد البلاد التى دخلت فى دين محمد عروبة . وأنه مع كثرة توالد
 المصريين والعرب الفاتحين وظهور مثال جديد اختلف عن الأصل بعد
 جيلين أو ثلاثة ، أدى تفوق نسبة المصريين العددية . من حيث النتيجة ، إلى
 تقلص أثر الدم العربى فى المصريين ، وأن القلاح المصرى العتيق . العربى
 بدينه ولغته . رجع ابناً لقدماء المصريين وصورة حية لهم ! » (١) .

وذلك عجيب من خلل المنطق وفحش الخطأ . يرفضه قانون الحياة
 وتأباه سنن الاجتماع . بل يرفضه المنطق القطرى الذى لا يمكن أن يتصور
 أن كائناً بشرياً بجاً قروناً . دون أن يتأثر بدماء اختلطت بدمه ، ولغة
 أعطته ذوقها ومزاجها وحسها . ودين اعتنقه وآمن به .

(١) ص ٨٠ وما بعدها ، من الترجمة العربية لعادل زعير - ط ٢ حلى .

رلست أدري فيم الجدل فى قوميتنا وقد مضى على عروبتنا الصريحة
المشتركة أربعة عشر قرناً ، ولا أحد يسأل الأمريكيين اليوم عن أنسابهم
القريبة الموزعة بين شتى الجنسيات والقوميات وأخلاط السلالات . ؟!

وقد انساق عدد من الكتاب العرب وراء هذا المنطق الشاذ . فضى
بعضهم ييجاد ماضينا كله ، ومضى آخرون منهم يحددون واقعنا الحى ليردونا
إلى أصول متناهية فى القدم .

ولم جميعاً نقول : الجيل الأول بعد الفتح مباشرة ، امتزجت فيه الدماء
العربية بالدماء الموروثة ، مهما يختلف عليها علماء الأجناس والسلالات . ثم
تتابعت الأجيال والتعرب يزداد عمقاً ورسوخاً وتأصلاً ، وعناصر الشخصية القومية
لشعوب الوطن العربى الإسلامى تنصهر فى بوتقة البيئة . المادية والمعنوية ،
بحيث يتعذر على أدق جهاز علمى أن يميز ما فى عروقنا من الدم العربى الصريح
أو الدم القديم الموروث .

وأياً ما تختلف أصولنا القديمة ، فنحن عرب مستعربة : رسخت فىنا
العربية على تتابع أجيال طوال ، منذ أظللنا لواء الإسلام وجمعنا أمة واحدة .

مدخل لغوى

فى العصر الجاهل ، كانت مخالطة لغوية
بين قبائل العرب وشعوب المنطقة .

لكن حركة الفتوح الكبرى ، كانت
المنطلق إلى الوحدة اللغوية ، فى اللسان المشترك
لشعوب هذا الوطن الواحد ، منذ هجرت
ألسنها الأولى إلى لغة القرآن الكريم ،
كتاب دينها .

وفى اللغة بوجه خاص ، نعرف أنه قد كان هناك اتصال لغوى قديم بين العربية ولغات الشعوب التى تعربت بعد الإسلام .

ولسنا نؤغل بهذا القديم إلى الأصول البعيدة لما يُعرف باللغات السامية والحامية والآرية ، وإنما حسبنا أن نشير إلى المعروف من صلات العربية باللغات التى خالطها فى الجاهلية^(١) .

* * *

كانت الإماراتان العربيتان فى الحيرة والشام - على اتصال سياسى وحضارى وثقافى بالفرس والروم . ومعروف من تاريخ الأدب الجاهلى - وهو من أهم المصادر اللغوية للقصصى - أن أمراء المناذرة والفساستة كان لهم شعراء عرب مختصون بهم ، وإلى هؤلاء الأمراء كانت رحلة الشعراء من الجزيرة العربية ، فبهم من كانوا يؤثرون المقام فى بلاط الأمراء كالتابعة الذبياني ، ومنهم من كان يكتبى بالفوفود على الحيرة وغسان ابتغاء الصلة كالأعشى ، أو لعرض

(١) يركز المؤرخ اليهودى «إسرائيل ليفنسون» فى محاضراته بالجامعة المصرية عن (تاريخ اللغات السامية) كذاهتمامه فى تتبع أثر العبرية فى لغات العالم القديم الذى تعربت شعوبه وتعرب لسانه بعد الإسلام . والفكرة تبدو مسيطرة عليه تماماً ، على رغم محاولاته المتتوبة فى مناقشة بعض آراء اللغويين من المشرقين ، لإضفاء روح العلم والنزاهة ، على ما يثبت من فكرته .

وقد نقلنا فى المدخل التاريخى ، كيف انطلق ليفنسون من فكرة السامية-التي بذرها يهود الوسطى فى الحقل اللغوى واللال لشعوب المنطقة-إلى حد ادعاء أن جزيرة العرب كانت الموطن الأصل لليهود ، وأنهم هاجروا منها ببلغتهم العبرية وأحدثت هجرتهم أثراً بعيداً فى التاريخ العام .

وهو يضيف إلى هذا كله ، أن الكنعانيين كان لهم التأثير الهام على العالم المتحدين ، علمياً وصناعياً ودينياً (ص ٥٢) وأن الكنعانية والعبرية ليستا فى الحقيقة سوى لغة واحدة (ص ٥٥) وقد انقسمت مجموعهم إلى كتلتين كونتا الأولى منهما الممالك الكنعانية فى سورية ، وكونتا ثانيهما دول الكنعانيين ومستعمراتهم فى جزر البحر الأبيض وفى شمال إفريقيا (ص ٥٥) .

ومنطقه فى كل هذا ، يقوم على دعاوى وفروض لا تحمل مناقشة علمية ولا تثبت لنظرة تاريخية فاحصة .

قضايا قبائلهم كالحارث بن حلزة وعمرو بن كلثوم ، ومنهم من كانت الظروف تسعى به إلى الأمراء ، كطرفه بن العبد .

وهؤلاء الذين ذكرناهم ، على سبيل المثال ، معدودون من فحول الشعراء الجاهلين . وكلهم من أصحاب المعلقات ، وقد كانت دواوينهم من المصادر الأولى لجمع معجم ألفاظ العربية ووضع قواعدها في النحو والصرف والعروض والبلاغة . وعن هذا الطريق ، اتصلت عربية الجزيرة بلغات الشام والعراق ، وقد صاروا بعد الإسلام ، من أكبر أقطار الوطن العربي .

وعرب الحجاز ، وفيهم لغة قريش ، كانوا على اتصال موسمي بالشعوب المجاورة جنوباً وشمالاً في رحلتى الشتاء والصيف ، وبمصر والسودان عن طريق سينا والبحر الأحمر . كما كان لعرب الجنوب صلاتهم التجارية ومخالطتهم اللغوية للشعوب الواقعة على الساحل الشرقى والشمالى لإفريقية . والساحل الجنوبى لآسيا ، عبر البحر الأحمر وخليج عدن وبحر العرب المنفضى إلى بحر الهند .

ثم كان هناك بين قبائل العرب نفسها ، اتصال حيوى مستمر ، لعل أقواه ما كان في الحجاز حيث العاصمة الدينية والاقتصادية والأدبية الكبرى لبلاد العرب . وملتقى قبائلهم في مواسم الحج التى كانت في الوقت نفسه مواسم تجارية وأدبية .

ولا أحاول هنا أن أتبع أسماء الذين ذكرت مصادرنا التاريخية للعصر الجاهلى أنهم كانوا يعرفون إلى جانب لغتهم العربية لغة أو أكثر من لغات الشعوب التى كان لها بالجزيرة العربية اتصال . إذ مهما يكن عدد هؤلاء فإن كتب التاريخ لا تذكر عادة إلا ذوى الشهرة منهم كالشعراء والمترجمين الرسميين كعدي بن زيد ولقيط بن معمر ، ومن اشتهروا بالقراءة في الكتب الدينية كورقة بن نوفل ، أو اكتبوا قصص الشعوب وأساطيرها مثل سويد بن الصامت^(١) .

(١) أخبارهم مبسطة في (السيرة النبوية لابن هشام وتاريخ الطبري ، عصر المبعث) وقرأ الدكتور ناصر الدين الأسد في (مصادر الشعر الجاهلي) ص ١٠ وما بعدها .

وكذلك الأمر في عصر المبعث ، قبل حركة الفتوح : تقتصر كتب التاريخ عادة على ذكر ذوى المكانة ، مثل كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم ، الذين كانوا يكتبون له إلى الملوك ويترجمون رسائلهم من اللغات الفارسية أو القبطية أو الحبشية . وتجده أسماءهم في (التنبيه والإشراف) للمسعودي .

فالذي لاشك فيه ، أن المسألة في هذا لم تقف عند حالات فردية لأشخاص معروفين بأسمائهم ، بل تجاوزتها إلى النطاق العام ، فكان هناك عرب غير هؤلاء يعرفون لغة أو أخرى من لغات الشعوب التي كانوا يتعاملون معها . كما كان هناك من أهل هذه الشعوب من يعرفون العربية .

ثم كانت هناك مخالطة لغوية بين هذه الألسن ، تأخذ طريقها من حيث يريد أهلها أو لا يريدون . وترون أثرها فيما دخل معجم العربية القديم ، من ألفاظ دخيلة أو معربة . حاول بعض علماء العربية استقصاءها وردّها إلى أصولها من لغات غير العرب ، كأبي منصور الجواليقي في (المعرب) والشهاب الخفاجي في (شفاء الغليل فيما في ألفاظ العربية من الدخيل) وجلال الدين السيوطي في الباب الذي عقده في (المزهرة) لما أخذت العربية من اللغات الفارسية والسريانية والعبرية والرومية والحبشية والقبطية .

ونقول هنا أيضاً : إن الأمر لا يقتصر على ألفاظ بعينها يمكن تحديدها وحصرها ، وإنما كانت مناطق اتصال العرب بالأُمم المجاورة ، مجالا لتأثير لغوي عام . يكفي دليلاً عليه ما نقرأ من حرص علماء اللغة ، فيما جمعوا من شواهد الفصحى ، على أن يتحاشوا قدر الإمكان ، الاستشهاد بالمرئى من شعر قبائل معينة ، لمخالطتها أُمماً أخرى . وقد ذكرها « ابن جني » في (الخصائص) و« السيوطي » في (المزهرة)^(١) وعدوا منها بوجه خاص :

— لحم وجذام : لمجاورتهم أهل مصر والقبط .

— الحيرة : لمخالطتهم أهل فارس .

(١) راجع كتاب الأستاذ سعيد الأفناني في (الاستشهاد في اللغة) ط دمشق .

قضاة وغان وإياد : لمجاورتهم أهل الشام .

تغلب : كانوا بالجزيرة مجاورين للروم .

بكر : لمجاورتهم للقبط والفرس .

عبد القيس وأزد عمان : كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس .

الين : لمخالطتهم للهند والحبيشة .

كما حاول علماء اللغة في عصر التدوين أن يتجنبوا «بنى حنيقة» وسكان النيامة . وأهل الطائف وحاضرة الحجاز ، لأن الذين تقلوا اللغة صادفهم حين ابتداءوا ينقلون لغة العرب : قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم»^(١) .

والمحاولة وحدها تكشف عن مدى المخالطة اللغوية وما تركت من أثر في القبائل العربية الصميمة .

ومهما يكن من جدوى هذه المحاولة التي شهدها عصر التدوين ، فالذي لا شك فيه هو أنها ما كانت لتستطيع أن تحكيم الحصار على الحياة اللغوية بعد الذي كان من قديم مجاورة ومخالطة . والحياة اللغوية لم تكن محكومة بهؤلاء اللغويين فحسب . وإنما كانت تحكمها قبل كل شيء ، عوامل اجتماعية واقتصادية ودينية ، لم يفلت منها فصحاء العرب في المناطق المعتمدة من اللغويين ، إن لم يكن بطريق مباشرة ، فعن طريق الاتصال بالقبائل العربية التي خالطت الأمم المجاورة .

وحركة التدوين نفسها ، لم تصبر على قيود علماء اللغة الأقدمين لخصر مناطق الرواية والاستشهاد في قبائل معينة . فالطبقة الأولى من الرواة الذين جمعوا تراث العربية ، لم يبدؤوا تراث الشعراء الذين عاشوا في غير المناطق المعتمدة من علماء اللغة .

خذوا مثلاً : « عدى بن زيد اللخمى » الذي أتقن الفارسية وترجم

(١) السيوطي : المزدور ٢١٢ وما بعدها ط الحلبي .

لكسرى وللنعمان . كان من الشعراء الذين ضرب عليهم علماء اللغة أشد الحصار . قال فيه الأصمعي في (فحولة الشعراء) :

« عدى ، وأبو دؤاد الأيادي ، لا تروى العرب أشعارهما لأن ألفاظهما ليست بنجدية » .

ونقل الموزباني في (الموشح) رواية عن المفضل الضبي أنه قال : « كانت الوفود تغد على الملوك بالحيرة فكان عدى بن زيد يسمع لغاتهم فيدخلها في شعره » .

وقال ابن سلام في (طبقات الشعراء) : « وعدى بن زيد كان يسكن الحيرة ومراكز الريف فلان لسانه وسهل منطقه » .

وقال ابن قتيبة في (الشعر والشعراء) : « وعلمائنا لا يرون شعره حجة ، والعرب لا تروى شعره لأن ألفاظه ليست بنجدية . وكان نصرانياً من عباد الحيرة . قد قرأ الكتب » .

ومع كل هذا ، تجد ديوان عدى قد جُمع ودُوِّن . وكانت هناك نسخ منه في عصر أبي العلاء . إحداها في دار العلم ببغداد ، التمسها « أبو العلاء » في رحلته المشهورة إلى مدينة السلام . قال في رسالة الغفران :

« وكنت بمدينة السلام فشاهدت بعض الوراقين يسأل عن قافيةٍ عدى ابن زيد التي أولها :

بكر العاذلات في غلس الصبح يعاتبينه أما تستفيق
ودعا بالصبوح فجراً فجاءت قينة في يمينها إبريق

وزعم الوراق أن ابن حاجب النعمان سأل عن هذه القصيدة وطُلبت في نسخ من ديوان عدى فلم توجد . ثم سمعت بعد ذلك رجلاً من أهل اسر اباد يقرأ هذه القافية في ديوان العبادي . ولم تكن في النسخة التي في دار العلم ^(١) .

(١) رسالة الغفران - تحقيق عائشة عبد الرحمن ، ص ١٤٧ ط ٥ ذخائر .

و « أبو العلاء » قد احتقى بعدى بن زيد في جنة الغفران . وأنشد ثلاث قصائد من روائع شعره . لا نجد لها كاملة في سائر المراجع الأخرى . و « ابن سلام » نفسه قد ذكر في طبقات الشعراء لعدي بن زيد أربع قصائد جيد قال : إنهن « لا يفوقهن شعر » .

وجمع أبو الفرج الأصفهاني قدراً ذا بال من شعر عدي بن زيد . في ترجمته له بكتاب الأغاني . وقلما يخلو كتاب من أمهات مراجعنا الأدبية ، من مختارات من قصائد عدي وأبياته . بعد أن قيل فيه : « والعرب لا تروى شعره ! » .

بل إن معاجم اللغة ، تأتي بالشواهد من شعره دون تجريح لما أو تروى منها . وكأن أصحاب هذه المعاجم لم يلتفتوا إلى ما قال « ابن قتيبة » فيه :
« وعلماؤنا لا يرون شعره حجة ! »

وكذلك رويت قصائد أبي دؤاد ولقيط بن معمر الإياديين ، وتعرفون مكانة « طرفة والأعشى والحارث بن حلزة » وقد كانوا من قبيلة بكر المبعدة عن الاستشهاد لمجاورتها للفرس . كما تعرفون مكانة « مهلهل وعمرو بن كلثوم » وقد كانا من تغلب ، ومنزلها بالجزيرة من مناطق المخالطة .

وأياً ما كان جهد اللغويين القدامى في تحاشي الأخذ من تراث هذه القبيلة أو تلك . ورفض اعتماد شعرها في الشواهد اللغوية . فالذي يعرفه التاريخ هو أن المخالطة اللغوية كانت واقعاً لا مفر منه ، وأن هذه القبائل المتجنبة ، كانت تخالط القبائل العربية في المناطق المعتمدة حجة في الفصاحة . مما اضطر اللغويين إلى الاعتراف بالأمر الواقع في تداخل لغات العرب ، ومنهم من رأى أن هذه اللغات كلها حجة ! ^(١) .

٩ ٥ ٥

على أن هذه المخالطة . على أبعد مدى يمكن تصوُّره . لا يجوز أن تُحْمَل

(١) السيوطي : الزهر في علوم اللغة . ص ٢٥٧ ، ٢٦٣ - ط الحلبي .

على الخلط الذى لا تتميز فيه لغة عن أخرى . أو تُطمس معالم الشخصية اللغوية فى اللسان القومى لشعب أو آخر . كما تصور بعض الدارسين المحدثين^(١) .

كل ما فى الأمر أن الاتصال التجارى والسياسى بين شعوب المنطقة . كان معه اتصال فكرى ولغوى تحكمه مؤثرات حيوية أخذاً وإعطاء . فى حدود ما تقضى به ضرورات الجوار والتعامل ، على أى وجه كان .

وتضبطه فى الوقت نفسه ، عن قصد أو غير قصد ؛ عواملٌ مضادة من حرص الشعوب على صيانة قومياتها ، ووعياها لما فى التفريط فى اللسان من مسخ للشخصية القومية وتفريط فى الذات .

• • •

وسترون فيما نتابع من سير الحياة بلغتنا . أن العربية اضطرت فى عصر الفتوح إلى أن تنصل بلغات الأقطار التى وصل إليها ممدُّ الفتح فى القرن الأول ، فاحتاجت إلى مترجمين ينقلون عنها وإليها . فى المدونات والوثائق الرسمية ، وفى العقود والمعاملات التجارية . وفى التفاهم الضرورى بين العرب وأهل الأقطار التى فتحوها وهاجروا إليها ، ريثما تمت حركة التعرب التى استغرقت جيلا أو أكثر بعد أن دخلت شعوب المنطقة فى الإسلام . فكان المنطلق إلى الوحدة اللغوية فى اللسان المشترك لشعوب هذا الوطن الواحد ، مع ملامح مميزة تفرضها البيئة المحلية بخصائصها الجغرافية والاجتماعية

(١) انظر مقدمة إبراهيم الايبارى لكتاب (المقنضب فيما وائق لغة أهل مصر من لغة

العرب) لابن أبى السرور الصديق - نشر وزارة الثقافة بمصر .

وكتاب إسرائيل ولغسون (تاريخ اللغات السامية) ص ١٦٨ .